

التسطير وإخراج الصفحت في مخطوطات الغرب الإسلامي^(*)

(ق ٨٤ / هـ ١٤ م)

ملیكة بختی^(**)

ترجمة: مراد تدغوت^(***)

تُعَدُّ الكوديكولوجيا من العلوم حديثة العهد، التي اقترن ظهورها باهتمام العلماء بالجانب المادي للمخطوط، وهو المجال الذي اصطلح عليه في الأدبيات الغربية بـ «علم آثار الكتاب» أو «الكوديكولوجيا». وفي هذا المعنى يتناول ج. لومير (J. Lemaire) المخطوطات في «مدخل إلى علم المخطوط»^(١)، بوصفها «آثارًا مكتوبة».

ونظرًا لتأَسُّع نطاق البحوث التي تندرج تحت عنوان الكوديكولوجيا، سمحنا لأنفسنا بتجاوز طفيف، تمثل في اقتراض فقرتين من تعريفين لمؤلفين مختلفين؛ لأجل تحديد هذا التخصص الجديد بشكل عام.

«تهتم الكوديكولوجيا بالمعنى الضيق» فقط بما يمكن أن نسميه «الجرف التقليدية للكتاب»، التي تدرس جميع المواد المستخدمة في العصور القديمة والعصور الوسطى؛ لصناعة هذا الأثر الذي يبدو يسيرًا، ولكنه حقيقة

(*) بحث نُحَرِّجُ باللغة الفرنسية، حصلت به صاحبه على دبلوم الدراسات العليا المعمقة، سنة ١٩٩٤-١٩٩٥، من المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، قسم العلوم التاريخية والفيلولوجية، في السوربون.

(**) باحثة أولى بالمركز الوطني للبحث العلمي / معهد تقاليد النص في (Villejuof) - باريس.

(***) باحث في التراث.

(١) مدخل إلى علم المخطوط (Introduction à la codicologie)، ١٩٨٩، ص: ٤.

معقّد جدًّا، ألا وهو: الكتاب المخطوط^(١). ويجب كذلك أن يفتح على مختلف مظاهر المعرفة التاريخية: التاريخ الشخصي لمكتوب يُعدُّ في تفرّده، أي تاريخ نقل النصوص، تاريخ متّيجي النُصوص (النسّاخ والطابعين)، وتاريخ أرصدة الكتب وخزائنها، وجامعيها^(٢).

يعتمد هذا العلم إذن على الدراسة الشاملة للمخطوط من منظور معرفة تاريخ تقنيات الكتاب القديم، وتوفير معطيات مفيدة لعلوم مساعدة، مثل: تاريخ تطور الخطوط، وفقه اللغة، والتاريخ... إلخ.

والكتاب المخطوط مثل أي شيء يحمل «آثارًا مقروءة» من الماضي (علم الآثار: النُقوش، والآثار، ومواد أخرى... إلخ)، يفتح مجالًا واسعًا للدراسة والتحقيق.

تقود دراسة الخصائص «شبه النّصية/ عبر النّصية»^(٣) أو الخارجة عن محتوى المخطوط، وكذلك تطور استخدامها، إلى مفهوم أفضل لنقل التقنيات في مجال كان فيه - فيما يبدو - النقل الشّفهي تقريبًا هو القاعدة^(٤).

وتتمثّل الفائدة التي تقدمها دراسة عميقة عن المخطوطات بوصفها تراثًا وطنيًا لحضارة، في أنها ستساعد على إزالة الغموض عن أعمال الكاتب أو النسّاخ، التي تطوّرت عبر الزمن، والتي بإمكانها أن تُمكننا من اكتساب خبرة من خلال النماذج المدروسة.

(١) المرجع السابق، ص: ٣، نقلًا عن س. ساران (c.Samaran).

(٢) المرجع السابق، ص: ٢.

(٣) اصطلاح في النقد الأدبي وضعه الناقد الفرنسي جيرار جينيت ٨٨، ويُراد به المعطيات المحيطة بالنص، مثل: الغلاف، وورقة العنوان، والتعليقات المدونة على العاشية، والصور والرسوم، والجداول، إلى غير ذلك من البيانات المتعلقة بخارج النص. (المترجم).

(٤) لاحظ كثير من الباحثين ندرة النصوص المعاصرة في هذا الجانب من الإنتاج الفكري.

إنَّ النماذج المؤرَّخة والمدروسة في هذا البحث - والتي وُصفت بشكل منهجي - يمكن أن تكون مرجعاً لتحديد تاريخ ومكان مخطوطات أخرى غير مؤرخة، لكنها تشترك معها في الظواهر الكوديكولوجية نفسها.

وفي هذا الصدد يقول ج. لومير (J. Lemaire): «إنَّ هذه الآثار المكتوبة بعدد يرتفع نسبياً، تتمتع بميزة واضحة؛ لأنها تساعد على إقامة المقابلات المهمة، مع العلم أنَّ بعض طرق الصُّنع التي تمَّ الكشف عنها من خلال الفحص الأثري، تعرَّضت للتحريف والتزوير بدرجات متفاوتة، وذلك بالنسبة للشواهد غير المؤرَّخة»^(١).

النماذج المختارة

يجب أن تبدأ كلُّ الدراسات الكوديكولوجية التي هي من قبيل دراساتها - وقبل استعارة أي إجراءات منهجية من أعمال بحثية شبيهة - بتحديد المجال الذي ستدور في فلكه، وذلك للتمكن من هيكلة الدراسة، ورسم حدودها ومعالمها. وهو ما ينبغي أن نضعه في الحسبان؛ من أجل تحقيق التجانس.

ويستند نهجنا في اختيار النماذج على معايير متَّسقة وموحَّدة، وهي: الحامل، والزمن، والمنطقة الجغرافية. ويتضمَّن هذا المعيار الأخير إشارة إلى مرجع آخر، غير الفهرسة التي تتضمن عمل الناسخ، والمكان الذي أنهى فيه عمله (ولدينا مجموعة الشواهد غير المُعدَّة للدراسة)، وهذا المرجع هو النُّسخة المغربية على وجه التحديد (الخط المغربي) والتي اخترناها على الأخصَّ بسبب ثقافتنا الشخصية، وانتهاينا إلى الغرب الإسلامي.

(١) مدخل إلى علم المخطوط (Introduction à la codicologie)، ص: ٥.

الحامل الورقي

الورق هو المادة التي انتشرت - تاريخياً - بسرعة في الغرب الإسلامي، وحلّت تدريجياً محلّ الرّق. وقد سبق أن تحدث الإدريسي^(١) في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، عن فاس وخاتيفا / Xativa في إسبانيا (سان فيليبي الآن)، بوصفها مَرَكَزَيْنِ مهمّين لصناعة الورق، ومنهما تمّ تصديره إلى أوروبا.

المخطوطات المؤرّخة

إن اختيار شواهد مؤرّخة، يُجَنِّبنا عدة مشاكل، منها:

أولاً: تفادي المشاكل التي تواجه المهتمّين بالمخطوط في تحديد أنواع الخطوط، واتجاهاتها، والمناطق الجغرافية المحددة التي تنتمي إليها.

ثانياً: أردنا باختياراتنا لهذه النماذج أن نحدّد - بكل تواضع - «نموذجاً رائداً» للدراسات القادمة، وهو ما يفرض علينا - بطبيعة الحال - أن تكون شواهد مؤرّخة.

أما عدد النماذج، وكذلك المدّة الزمنية (القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي)، فقد تأثراً بالمعايير المذكورة آنفاً.

ومن ثمّ فقد اجتمعت لنا الدوافع لبدء العمل على المخطوطات المؤرّخة، والمكتوبة على الورق بالخط المغربي. ولا شك أنّ القرن الثامن

(١) الورق العربي (Arab paper): كاراباسك KARABACEK (جوزف فون Joseph von -

١٨٨٧، ص: ٣٠.

الهجري / الرابع عشر الميلادي^١ هو القرن الذي قدم لنا أكبر عدد (إحدى عشرة) من النماذج المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس (المخطوطات هي: باريس ٦٢١ عربي، و٧٩٣ عربي، و١٠٧٢ عربي، و٢٢٢٢ عربي، و٢٢٨٣ عربي، و٢٢٩١ عربي، و٤٧٦٦ عربي، و٤٧٦٧ عربي، و٤٧٦٨ عربي، و٤٧٦٩ عربي، و٧٢٣٣ عربي).

وقد تحققت رغبتنا المتواضعة في ضمّ نماذج من رصيد خزانة المكتبة الوطنية بالجزائر، بلغ عددها أربع مخطوطات^٢، تتوفر فيها المعايير التي حددناها في البداية (المخطوطات هي أرقام: ٢١٧، و٤٧٥، و١٠٧٢، و١٨٣٤).

المنهج

يستند منهجنا أساساً على الملاحظة، ويجب أن نظل يقظين إزاء خطر الذاتية التي قد يتعرّض لها أيُّ باحث يعتمد على الملاحظة، لاسيما ونحن نشرع في هذا النوع من الأبحاث.

كان علينا - لكي نبدأ هذه الدراسة - أن نقدم نوعاً من الاستبيان، الذي يتضمن تعريفاً للمخطوطات النماذج، ذلك أنّ هذا المشروع حول التسطير وإخراج الصفحة، يفرض علينا هذا التعريف؛ من أجل تحديد الممارسات المستخدمة للمخطوطات، لاسيما أن الفهارس تعاني من التباين

(١) تأكد هذا الاتجاه في قراءة عدد من المخطوطات التي قام بدراستها ب. أورساتي (P. ORSATTI) في «المخطوطات الإسلامية: الخصائص المادية والتصنيفية» (le manuscrit islamique: caractéristiques matérielles et typologie) ص: ٢٩٥.

(٢) في الواقع، وجدنا ست مخطوطات مؤرّخة في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، بيد أننا استبعدنا اثنتين منها؛ وذلك للحالة المتدهورة التي كانتا عليها، بسبب (آثار الأرض، وتخلع التكراريس).

والقصور في وصف المخطوط وتحديد خصائصه، ولذلك سَعَيْنَا إلى جعل هذا الاستبيان مفصلاً ما أمكن، مع جعل ظاهرة التسطير وإخراج الصفحة - بالطبع - موضوع اهتمامنا.

إن المخطوط في جانبه المادي كيانٌ مستقلٌ، ذلك أنه يتكوّن من مجموعة من العناصر الكوديكولوجية؛ ويقدم لنا معلومات غنية، تَنكَّبنا الحديث عن بعضها؛ لأسباب، منها: الحذر من عدم إيفائها حقّها من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ لَفَسْح المجال للراغبين في دراستها في المستقبل.

لقد اعتمدنا في إعداد هذا الاستبيان الذي سميناه ببساطة «بطاقة وصفية» على ثلاثة أعمال^(١)، منها عمّلمان مخصّصان لوصف مخطوطات غير إسلامية.

وهذا الاتجاه نحو استعارة مناهج كوديكولوجية مبثوثة في العديد من الأعمال، يفضي بنا في نهاية المطاف إلى إجراء بحوث حقيقية في مجال «كوديكولوجيا مقارنة»^(٢).

(١) أ) «منهج الفهرسة» (The Method of the catalogue) في : فهرس المخطوطات العربية (Catalogue of Arabic manuscripts)، ١/ ج. ج. ويتكام. (J.J. WITKAM) - ليدن؛ ق. إل بي، ١٩٨٣.

ب) «مساهمة كوديكولوجية لدراسة إينكونابولوم» (de la à l'étude des incunables) (Contribution codicologie) في: الأتلام والدفاتر: خليط... لينغر (م.ت) (LENGER.M.T) - بروكسل: س.أ.م، ١٩٨٥، ص: ١٠٠.

ج) دليل لوضع فهرس مخطوطات. (Guide pour l'élaboration d'une notice de manuscrits) - إرهت (IRHT) - باريس، ١٩٧٧.

(٢) أ) المخطوطات الإسلامية: الخصائص المادية والتصنيفية، ب. أورساي، مرجع سابق، ص: ٢٧٠.
ب) المخطوطات العبرية من الشرق إلى الغرب، نحو كوديكولوجيا مقارنة... (Hebrew manuscripts of East and West, towards a comparative codicologie)، بيت-أريه (م.م) (M. BEIT-ARIE) - ١٩٩٢، ص: ٣٧-٧٨.

أردنا إعادة تصميم النموذج كما هو بادٍ على الورقة (الوجه أو الظهر)، فقمنا برسم شكل التسطير، وإعطاء الأبعاد (بالمليمتر)، وميّرنا مظهر النص على الصفحة، حتى تتسنى لنا المقارنة بين الأشكال المختلفة، وتمديد خطوط ضبط النص، وإن كان التسطير قد يظهر لأول وهلة أنه مماثل. بهذه الطريقة يمكن لنا أن نستخرج خصائص واضحة لكل مخطوطة على حدة.

هذا العمل يوفر لنا مدخلاً حقيقياً لدراسة كوديكولوجية، ويجعلنا نكتسب منهجاً بحثياً في كيفية قراءة «العلامات الكوديكولوجية». ثم إن هذا الموضوع لا يمثل لنا مجرد «فضول شخصي» فحسب، بل إننا نريد - أيضاً - أن نقدم به مجموعة متكاملة من البيانات المهمة، عن أفضل المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي.

التسطير وإخراج الصفحة

لا شك أن التسطير عنصر كوديكولوجي، «وهو جزء مهم جداً في إخراج الصفحة»^(١)، ذلك أنه يُسهم في إدراك «الرؤية الجمالية» للنص، التي يميل صانع المخطوط إلى خلقها من خلال ترتيب جمالي. ويُعدُّ التسطير بمثابة قانون^(٢)، تُخضع الصفحة بموجبه للتنسيق، وتُكوّن «عالمًا صغيرًا»، يظهر جلياً من خلال وصف المكونات، وفكّ الرموز، وبذلك يصير التسطير كالعلامة التجارية، وقد عرّف بأنه: «يتألف من مجموعة خطوط مستقيمة، عمودية [و / أو] أفقية، تمكّنُ النايسخ (أو المزخرف) من ترتيب النص (أو

(١) مقدمات إلى الكوديكولوجيا (Prolégomènes à la codicologie)، جيلسون (ليون)

(GILISSEN (Léon) - ص: ١٢٥.

(٢) المرجع السابق.

الصورة) على وفق نظام دقيق. والتسطير يسبق عملية النسخ، في مسار صناعة الكتاب^(١).

إن عملية إنتاج المخطوط عملية حرفية، ومن ثم فإن المصطلح الأنسب - في رأينا - من شأنه أن يكون: «حرفة» بدلاً من «صناعة» التي تنطوي على درجة من عملية «المليكة».

ومن الواضح أن دور التسطير يتمثل في تحقيق الانسجام بين الجزء الأبيض الذي يشكّل الهامش، والجزء المخصّص للكتابة. وفي هذه المرحلة من تنسيق الصفحة، يصير التسطير جزءاً مهماً في إخراجها، ف «الصفحة المغطاة بالكتابة تقدّم، عن طريق تجانس الهوامش والنص، توازناً لم ينتج قطعا بالصدفة»^(٢).

إن الوصف الكامل والمتشدد للتسطير، له ميزة تتمثل في أنه يعطينا معلومات مهمّة عن عمليات في هذا الشأن، في منطقة معيّنة، وفي عصر معين، كما يعطينا معلومات مهمة عن قيمة المخطوطة نفسها.

ويتم التسطير عملياً من خلال رسم خطوط مستقيمة (عمودية و/أو أفقية)، باستخدام قلم الرصاص، مع الحبر الأسود المخفّف، أو لون آخر مخفّف أيضاً، برأس السنّ الجافّة أو غيرها، مع توظيف قالب^(٣) مسطّرة واحد، أو أكثر من قالب، إلا نادراً، وقد يتخلل هذا التسطير ميلان ما.

(١) مدخل إلى علم المخطوط (Introduction à la codicologie)، ١٩٨٩، لومير (ج). (LEMAIRE (J.)) - ص: ١٢٥.

(٢) المرجع السابق ص: ١٠٩.

(٣) التسطير في المخطوطات العبرية في العصور الوسطى. (la Régure des manuscrits hébreux)، ص: ١٦. (DUKAN (Michèle))، ص: ١٦.

قال بودجي Budget في موضوع الصحف والكتب المخطوطة «المغربية / maures»: «إنَّ الورق الذي تتَّمُّ فيه كتابة الكتب والرسائل المغربية من نوعية جيّدة، فهو ورق سميك وصقيل، من حجم الرُّبْع، بهامش واسع، يحيط بالكتابة باستثناء اليسار، والخطوط فيها مستقيمة جدًّا، إما عن طريق ورقة قابلة للطّيِّ بدلاً من التسطير، أو عن طريق الضغط على لوحة تسمى المُسَطَّرَة أو «مُسَطَّر» عبر الخيوط التي يتم لصقها، ...»^(١).

ولقد استُخدمت هذه العمليات - على ما يبدو - على التوالي، أو بالتوازي في جميع المناطق الجغرافية واللغوية، أو التي سبق دراستها (اليونانية واللاتينية والعبرية والعربية). وتحدّث ميشيل دوكان^(٢) عن النَّصِّ المنسَّق تنسيقًا مثاليًا في المخطوطات، حتى إنه لا يحمل أي أثر للتسطير، مما يشير إلى وجود وَصْفَة جِبْرٍ خاصة بالتسطير، يمكن إزالتها بعد نَسْخِ النَّصِّ دون إحداث أي اعوجاج، أو أثر.

وكان فنُّ التعامل مع التسطير في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين في الأندلس، معروفًا جدًّا ومقننًا. ويدل على هذا نصُّ إدريس بن محمد القلّوصي (باريس ٦٨٤٤ عربي)، الذي خَصَّصَ فقرة للتعامل مع المُسَطَّرَة: «يوضح هذا النصُّ أن التسطير يُستخدَمُ باستعمال أساليب وأدوات مثل: المُسَطَّرَة والبركار، وهو عمل حسابي يأخذ بعين الاعتبار المعايير التي تُعَدُّ الصفحة لكتابة النص... ويعطي نموذجًا

(١) أخبار مخطوطات الشرق الأوسط (Nouvelles des Manuscrits Moyen Orient) أبو ريشة (ن) (ABOURICHA (N.)) - ٣/١، يونيو، ١٩٩٣.

(٢) التسطير في المخطوطات العبرية في العصور الوسطى. (la Réglerure des manuscrits hébreux) (au Moyen-Age) دوكان (ميشيل) (DUKAN (Michèle))، ص: ١٥.

لرسم عشرين سطرًا من خطوط التسطير»^(١).

في المقابل، فإننا لسنا متأكدين إلى الآن إذا ما كان الناسخ نفسه هو مَنْ يُسَطِّر ورقته، أو يقتنيها من الوراق مُسَطَّرَة. وفي العالم الإسلامي - كما لاحظنا سابقاً - لُسنّا متأكدين من أن المهنة المرتبطة بإنتاج المخطوط مستقلة عن بعضها، لدرجة أن لكل منها حرفيين متخصصين.

وفي هذا الصدد، عدّد محمد المنوني في كتابه عن «تاريخ الوراقة المغربية - صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة» اثنتي عشرة مهنة ذات علاقة بصناعة المخطوط، دون أن يغفل الوراقين والنّسّاحين^(٢).

وعرض المنوني للإشكالية التي يطرحها المصطلح العربي «وَرَاقَة»، والذي يعني حرفياً «مصنع الورق»، وما يمكن أن يشمل من مهام (أو حِرَف) متصلة بالمخطوط، وفَصَّل تعريف ابن خلدون في المقدمة، حيث يقول: «معاناة الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين»^(٣)، وبهذا تدرج فيها صناعة تحضير الرّق وإعداد الورق، ونفهم من قوله: «وسائر الأمور الكتبية» أن الأمر يتعلق أيضًا بالأحبار، وبِري الأقلام.

إن ثمرة دراسة تنسيق الصفحة ليست دقيقة؛ ذلك أن آثار التسطير لها دور مهم في تحديد هذا النسق ودراسته، وهي غير متاحة لنا بصورة مرضية؛ إذ إن الصفحة كثيرًا ما تتعرض للتلف، بسبب القص وغيره، مما يؤدي إلى ضياع معالمها وتوازنها الأصلي، كما هو حال مخطوط باريس (٤٧٦٧ عربي)

(١) مقال لعمل النّسّاح في العصر النصري (Un Traité à l'usage des scribes à l'époque nasride) سوفان (يفت) (SAUVAN (Yvette))، ضمن وقائع ندوة في إستانبول، ص: ٤٩ - ٥٠.

(٢) تاريخ الوراقة المغربية، ص: ٣٢٩.

(٣) المرجع السابق، ص: ١١.

الذي فقد هامشه الأعلى في ملازم كثيرة، حتى إن الكتابة تقع على حافة الورقة.

ومن ثم - ومع الأخذ في الحسبان هذه التشويبات - لا يمكننا الحديث عن المصطلح إلا بشيء من الحذر، اعتماداً على حجم الهوامش الداخلية؛ لأنه عادة ما تتأثر بخلع الدفاتر، وإعادة تجميع علامات التبويب.

تحليل التسطير وإخراج الصفحة

١ - التسطير

يُعرّف التسطير بأنه: «مجموع الخطوط المرسومة على الصفحة؛ لتحديد المساحة المخصصة للكتابة، وتوجيهها»^(١). وهذه المجموعة من الخطوط المستقيمة يمكن أن تتخذ تمديدات، وأشكالاً مختلفة (بسيطة أو مركبة). ويمكن أن تساعد على بناء نماذج مستمدة من أنماط مشابهة. وتُمثّل نمط التسطير أيضاً: «رسمًا يُشكّل من خطوط تكوّن من التسطير الذي نلحظه اتفاقاً على وجه الأوراق والتي يمثل ظهرها، فيما عدا الاستثناء، شكلاً مماثلاً»^(٢).

إنّ المخطوطات التي تكوّن نماذجنا، تم تسطيرها بالنقطة الجافة^(٣) أو مناقش التسطير، باستثناء مخطوطة واحدة هي مخطوطة ٢١٧ جزائر، ذلك أن التسطير فيها تمّ بالمسطرة، وهي «أداة تتكوّن من خشبة تمتدّ عليها أوتار

(١) معجم كوديكولوجي (Vocabulaire codicologique)، موزارل (دينيس) (MUZERELLE, Denis)، ص: ١٠٤.

(٢) المرجع السابق، ص: ١٠٥.

(٣) النقطة الجافة هي: نقطة تنقش بالمنحت، والمنحت آلة من ساق معدني له رأس حادة، غير مبللة بالخبر، بها يتم تسطير مجموعة من الصفحات دفعة واحدة. (الترجم).

تُرسم بها الخطوط؛ لذلك يكفي وَضْع الآلة على الورقة، وَالصَّغْط على طول الأوتار؛ للحصول على أثره على الورقة»^(١).

ونظام التَّسْطِير في هذه المخطوطات مَحَدَّد بِخَطَّين عموديين لضبط إطار النص، وَيَتَّسِمُ ببعض الخصوصيات من نسخة إلى أخرى. وفي هذا السياق، سمحت الملاحظة بتحديد رسومات لمخططات التَّسْطِير في نهاذجنا^(٢). كما أَنَّ هذا النظام يسمح بتمييز شكلين من التسطير، إضافة إلى حالة خاصة تَضَمَّتْهَا مخطوطة ٢١٧ جزائر.

أ. التسطير البسيط

أما الشكل الأول فهو تسطير «بسيط» ومحدَّد بِخَطَّين عموديين لضبط النص؛ وينتهي الطرفان العُلوي والسُّفلي في نهاية كل خط عمودي، على بُعد بضعة ملليمترات من السطر الأول والأخير من الكتابة. ويمجد الخطان العموديان عَرَضَ الإطار وطولَه، الذي يتضمَّنُ النَّص. ولا يبدو أن هذا الشكل من أشكال التسطير يتصل بنوعية الكتابة أو قيمة المخطوط.

وهناك عشر مخطوطات من هذا الشَّكل الأوَّل من أشكال التَّسْطِير، نذكرها فيما يلي بحسب الترتيب الزمني للنَّسخ، وبحسب أماكن حِفْظها، وهي: (باريس ٧٩٣ عربي، و٧٢٣٣ عربي، و١٠٧٢ عربي، و٢٢٢٢ عربي، و٢٢٨٣ عربي، و٤٧٦٨ عربي، و٦٢١ عربي، و٤٧٥ جزائر، و١٠٧٢ جزائر، و١٨٣٤ جزائر).

(١) المرجع السابق، ص: ٧٠.

(٢) انظر أنواع التسطير.

ويقدم مخطوط باريس (١٠٧٢ عربي) خصوصية منفردة؛ ذلك أنه يحتوي على علامات الوَخز (نقطة جافة أو بَركار) التي تحدد الأركان الأربعة المحددة للنص. ويلاحظُ أَنَّ الحِطَّين العموديين يتجاوزان قليلاً نقاط الاستدلال هذه.

والنموذج الثاني للتسطير هو أيضًا من النوع «البيسط»، ولكن بحِطَّين «عموديين طوليين»، مرسومين على طول الورقة، وورد هذا النموذج في مخطوطات باريس: (٤٧٦٦ عربي، و٤٧٦٧ عربي، و٤٧٦٩ عربي).

وتمثَّل أولى هذه المخطوطات (باريس ٤٧٦٦ عربي) حالة نادرة لرسم الحِطَّين «العموديين الطوليين» ومسافة العرض الذي يفصل الحِطَّين العموديين لضبط النص (+ ٥ ، ٠ ملم)، وهو أكثر اتساعًا في الجهة العليا للصفحة، من الجهة السفلى.

وللتغلب على الغياب التام للتسطير - للاسترشاد به في الكتابة - يبدو أن النُّسخ قد اتخذوا جَدِيلة لوضع خطوط أفقية، وهي واضحة في معظم الحالات للعيان، على هذا النوع من الورق. ويمكن للناسخ أن يعثر على وسيلة أخرى، تتمثل في تسطير السطر الأول من الصفحة، يكون بمثابة دليل يسترشد به في كتابة مستقيمة (أفقياً).

أشكال التسطير:

باريس

(٧٩٣ عربي / ٧٠٧ / ١٣٠٩)



القياس: ١٨٨×٢٥٨ ملم
المساحة المكتوبة: ١٣٢×٢١٠ ملم

باريس

(٧٢٣٣ عربي / ٧٢٠ / ١٣٢٠-٢١)



القياس: ٢٠٨×٢٩٨ ملم
المساحة المكتوبة: ١٥٨×٢٤٠ ملم

باريس

(١٠٧٢ عربي / ٧٢٢ / ١٣٢٢)



القياس: ٢١٨×٢٨٤ ملم
المساحة المكتوبة: ١١٥×٢٠٥ ملم

الجزائر

(١٠٧٢ عربي / ٧٢٢ / ١٣٢٢)



القياس: ١٩٠×٢٧٣ ملم
المساحة المكتوبة: ١٤٥×٢١٧ ملم

الجزائر

(١٨٤٤ عربي / ٧٣٠ / ١٣٢٩)



القياس: ١٨٣×٢٧٨ ملم
المساحة المكتوبة: ١٣٧×٢٣٠ ملم

الجزائر

(٢١٧ عربي / ٧٢٢ / ١٣٢٢)



القياس: ١٨٠×٢٢٢ ملم
المساحة المكتوبة: ١١٧×١٨٠ ملم

باريس

(٢٢٣٣ عربي / ٧٤٤ / ١٣٤٤)



القياس: ٢٠٦×٣٠٣ ملم
المساحة المكتوبة: ١٥٥×٢٥٠ ملم

باريس

(٢٢٣٣ عربي / ٧٤٥ / ١٣٤٥)









القياس: ١٧٢×٢٢٥ ملم
المساحة المكتوبة: ١٣٠×١٩٠ ملم

باريس

(٢٢٩١ عربي / ٧٥٧ / ١٣٥٧)



القياس: ٢٢١×٢٧٠ ملم
المساحة المكتوبة: ١٥٠×٢١٠ ملم

<p>الجزائر (١٣٥٦/٧٥٨/٤٧٥)</p>  <p>القياس: ٢٠٥×٢٥٧ ملم المساحة المكتوبة: ١٣٥×١٨٥ ملم</p>	<p>باريس (١٣٦٨/٧٧٠/عربي/٤٧٦٦)</p>  <p>القياس: ٢١٠×٢٦٠ ملم المساحة المكتوبة: ١٦٠×١٦٥ ملم</p>	<p>باريس (٧٤١٧عربي/٧٧٠/١٣٦٨)</p>  <p>القياس: ٢١٤×٢٦٢ ملم المساحة المكتوبة: ١٥٥×٢٣٣ ملم</p>
<p>باريس (١٣٦٨/٧٧٠/عربي/٤٧٦٨)</p>  <p>القياس: ٢٠٧×٢٦٣ ملم المساحة المكتوبة: ١٤٠×٢١٥ ملم</p>	<p>باريس (١٣٦٨/٧٧٠/عربي/٤٧٦٩)</p>  <p>القياس: ٢١٨×٢٦٥ ملم المساحة المكتوبة: ١٦٠×٢٣٠ ملم</p>	<p>باريس (٦٢١عربي/٨٠١/١٣٩٨)</p>  <p>القياس: ١٩٠×٢٨٤ ملم المساحة المكتوبة: ١٥٥×٢٢٠ ملم</p>

إن التسطير المدروس على أربعة عَشْرَ نموذجًا المذكورة في بحثنا هذا، تعود جميع الأنواع «البيسطة» فيه للأشكال من النوع «أ» التي حددها م. دوكان (M. Dukan)^(١)، وإلى أشكال النمط المعتاد الذي رفعه ج. لوروي (J. Leroy)^(٢).

أما الشكل الثالث المرصود للتسطير فقد صُنِعَ بالمسطرة في مخطوط الجزائر رقم ٢١٧، ذلك أنَّ الخطوط الأفقية لا تُرى إلا على السطرين أو

(١) التسطير في المخطوطات العربية (La réglure des manuscrits hébreux)، دوكان (م). (DUKAN (M.))، ص: ٢٤ - ٢٥.

(٢) أنواع التسطير في المخطوطات اليونانية (Les Types de réglure des manuscrits grecs)، لوروي (ج). (LEROY (J.))، ص: VII.

الثلاثة الأولى من أول الصفحة، ومن آخرها، ثم تحتفي بعد ذلك في أسطر الكتابة. و «وحدة التسطير» في هذا المخطوط هي ١٣ ملم، وهو ما يعطي النص مظهرًا اعتنائيًا بتباعد ما بين الأسطر.

ب. التسطير المركب

نشير هنا أيضًا إلى مخطوطتين هما: (الجزائر ١٨٣٤، وباريس ٢٢٨٣ عربي) يتكوّن التسطير فيهما من خطين عموديين قاعديين لضبط النص، مرسومين على ظهر الصفحة، والخط الثانوي مرسوم بينهما. وتتمثل خصوصية هاتين المخطوطتين في أنها تشملان مقاطع متوالية، وكان من الضروري للناسخ رَسْم الحدود (الواصلة) للشطرين.

ويظهر هذا التسطير «الثانوي» على عمود مركزي أو عمودين، على صفحة كاملة أو على جزء منها. ويخطّه الناسخ أولاً بأوّل تبعًا لاحتياجات النص، على وجه الصفحة أو على ظهرها. ويتمّ رسم الخطوط الأفقية بعناية، ويُتجاوز القسم المخصّص لهذا التعاقب، أي إلى الخطوط العمودية الأصلية للضبط.

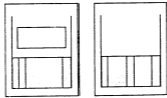
الأمثلة

(الجزائر ١٨٣٤)



ق. ١٤ ط

(باريس ٢٢٨٣ عربي)



ق. ١٣٢ ط

ق. ١٤١ و

لقد سبق أن أشرنا إلى أنه لا يُعلم إذا ما كانت الورقة يقدمها الوراقُ للنَّاسخ مسطَّرةً، أو أن الناسخ هو الذي يقوم بهذه المهمة بنفسه؛ وفي هذا الإطار وجدنا مخطوطتين، تُمكننا من أن نفترض أن التسطير قام به الناسخ نفسه، وهما: (باريس ٤٧٦٨ عربي، و ٢٢٩١ عربي).

أما مخطوط باريس رقم ٤٧٦٨ عربي؛ المجلد الثالث من ديوان ابن البَيْطار، فقد كتبت على نوع الورق نفسه. مع تعذُّر عام يقرب من المجلدين الآخرين. وعلى حين جاء نمط التسطير في هذين المجلدين في وجه الورقة، فإنه جاء في المجلد الثالث في ظهر الورقة. ويُظهر عدد أسطر الصفحة كذلك تفاوتاً لافتاً: في المخطوط ٤٧٦٨ عربي ١٩ سطراً في الصفحة، على حين كان عددها في المجلدات الأخرى ٢٥ سطراً في الصفحة.

٢- إخراج الصفحة

إذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ «التَّسطير ليس فقط إشارة إلى الناسخ أو المزخرف أو إضاءة له، نجد أيضاً أنه يشير إلى التنظيم العام لوجه الورقة، ويساعد على تحديد إخراج النص»^(١)، و«القياس العام للورقة وكذا «مساحة الكتابة»، يسمحان بأن نرى كيف يقدمُ الناسخ صورة نصِّه على الصفحة، أو الصفحة المزدوجة.

وكما أشار إلى ذلك ليون جيليسن (Léon Gilissen)^(٢)، فإنَّ الظروف المثالية لتقديم بيان تام لإخراج الصفحة، هي أن يكون ذلك «خلال أعمال ترميم المخطوطات وتجليدها»؛ وهو وقت مناسب يسمح بعمل سهل على المخطوطات، وهو - لسوء الحظ - لم يكن حالة نهاذجنا المختارة.

(١) مدخل لعلم المخطوط (Introd. à la codicologie)، ... ص: ١١٤.

(٢) مقدمات نقدية (Prolégomènes)، ... ص: ١٣٧.

أما مجموع النماذج، فهـ القياسات المطلقة» للوحات هي في أغلبها مشوّهة بالتشذيب، قليلاً كان أو كثيراً، مما قلل من أهمية تقديم أيّ من تلك النماذج، وعلى الرغم من هذا النقص، فنحن نحاول معرفة بعض الأشكال التي اعتمدها النُسخ في عملهم.

وتشير دراسة العلاقة ١/ طول عن المساحة المكتوبة في النماذج المدروسة - إلى قيمة تتأرجح بين ٠,٥٩ و ٠,٧٢، الأمر الذي يعني بالنسبة لنا أن الشكل العمودي موجود في المخطوطات التي يعود تاريخها إلى القرن الثامن الهجري / الرابع عشر ميلادي.

والنموذج الوحيد المستثنى من القاعدة الملحوظة في جميع الحالات الأخرى، هو مخطوطة (باريس ٤٧٦٦ عربي)، هذه المخطوطة التي تظهر عليها آثار كثيرة جداً للتشذيب، والمساحة المكتوبة فيها تنحو نحو المربع: ١/ طول = ٠,٩٦، والتسطير فيها من النوع «البيسط»، الذي يتكوّن من خطين «عموديين طويلين»، تمّ رسمهما على طول الورقة.

أما النصوص التي تحتوي على التسلسل الترتيبي (باريس ٢٢٨٣ عربي، و ١٨٣٤ جزائر)، فالتسطير الثانوي فيها يقوم به النّاسخ على الدرجة نفسها من سير عملية النّسخ، بحسب متطلبات النص، ومن ثمّ فمن المؤكّد أنّ التخطيط لم يكن قد تمّ لها مسبقاً، باستثناء التّسطير الأساس المتمثّل في الشكل العمودي المؤطّر، فقد ظهر أنه قد تمّ رسمه سلفاً في اللوحة.

وكما ذكرنا سابقاً أيضاً، فقد عانت الهوامش في النماذج المختارة كثيراً من بتر في الأطراف الرئيسة، وهو ما لا يسمح لنا بوصف المساحة المكتوبة / المساحة الكاملة للورقة بدقة. وإلى جانب الشكل العمودي المؤطّر للورقة،

كما يظهر على المساحة المكتوبة، فنحن نفترض - مع قدر كبير من الحذر - أن أبعاد الهوامش العلوية والسفلية كالأصل، تتراوح ما بين ٣٥ و ٥٠ ملم، أما الهوامش (الجانبية) الداخلية والخارجية فهي ما بين ٢٥ و ٣٥ ملم، والتي تدل - في رأينا - على مراعاة لبعض نسب العرض والطول، وهذا يدل - إذا جاز التعبير - على اعتناء الناسخ بتقديم نصّ منسّق على الصفحة.

إن المخطوطات النماذج ذات المحتوى غير الديني جميعاً ذات شكل عمودي، وهي على النقيض من مخطوطات القرآن الكريم^(١)، التي يعود تاريخها إلى القرنين ٧ و ٨ الهجريين / ١٣ و ١٤ الميلاديين، والمنسوخة على الرّق، والمضبوطة بالنقطة الجافة / مناقش التسطير، فإن لها شكلاً يميل نحو التربع. وسنذكر في ما يلي بعض العلاقات / طول لـ «المقاييس المطلقة» و«المساحات المكتوبة»؛ لتوضيح اتجاه الشكل المربع في نوع خاص من المخطوطات.

التسطير	المساحة المكتوبة	المقاسات المطلقة	
النقطة الجافة	٠,٩٥	٠,٩٤	ق ١٣ م. باريس ٣٨٥ عربي
قلم الرصاص	٠,٩٣	٠,٩١	٤٢٣
الحبر المخفّف	٠,٨١	٠,٨٣	ق ١٣-١٤ م. باريس ٣٩٥ عربي
النقطة الجافة	٠,٩٦	٠,٩٠	٣٨٦

(١) ديروش (فرانسوا) (DEROCHE(François)) - فهرس المخطوطات العربية (Catalogue des manuscrits arabes)، القسم الثاني. مخطوطات القرآن الكريم. من المغرب إلى جزر الهند الشرقية (Les Manuscrits du Maghreb à l'Insulinde).

النقطة الجافة	٠,٨٤	٠,٨٥	٢٠٢
النقطة الجافة	٠,٩٠	٠,٨٨	ق ١٤م باريس ٣٨٨ عربي
النقطة الجافة	٠,٩١	٠,٩١	٥٩٣٥
النقطة الجافة + حبر	٠,٩٥	٠,٩٦	١٩٤
النقطة الجافة	٠,٨٤	٠,٧٦	٢١٧

هذا وإن المخطوطات المغربية للقرآن الكريم - كما سلف الذكر - كُتبت على الرِّق، ووضِّبت في معظم الحالات بالنقطة الجافة / منقاش التسطير، لتتلاءم مع هذا النوع من الحامل.

ومنذ القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، حلَّ الورق تدريجياً محلَّ الرِّق، وأصبح التسطير بالمسطرة أكثر انتظاماً، ومال شكل الصفحة (مع وجود استثناءات) نحو الشكل العمودي لـ«المقاييس المطلقة»، وكذا «المساحة المكتوبة». والتسطير بالمسطرة يتطلب حاملاً أكثر مرونة مثل الورق.

وبالإضافة إلى ذلك، ففي المخطوطات المذكورة في FIMMOD^(١) لاحظنا وجود التسطير بالنقطة الجافة/ منقاش التسطير في مخطوطات الغرب الإسلامي فقط، في حين نجد أن المخطوطات المشرقية تستعين بالمسطرة، فهل يرجع هذا التقليد إلى أن المشرق قد عرف استخدام الورق، وهو الحامل المثالي لاستخدام المسطرة، قبل الغرب الإسلامي، وعلى أية حال فهذا ليس سوى افتراض، ويمكن أن تكون هناك أسباب أخرى مختلفة تماماً.

(١) فيمود- ١/٣، يونيو ١٩٩٣.

الخاتمة

لا نزعم أن دراستنا هذه التي اعتمدت نماذج قليلة من المخطوطات (خمس عشر مخطوطة) قد انتهت إلى تقديم تصنيفاً أو دراسة ذات مقولات قاطعة لخطط التسطير المستخدمة في منطقة الغرب الإسلامي. ولم يكن هدفنا، بل كان هدفنا الأساس إنشاء «نموذج رائد» يصف بأكبر قدر ممكن من التفصيل مخطوطات الغرب الإسلامي غير المؤرخة، من خلال دراسة التسطير دراسة تحليل واستقراء، وهذا ما رزقت إليه هذه المساهمة المتواضعة، ونأمل أن نكون قد وفقنا.

ونختتم باستخلاص جملة من النتائج التقنية:

- التسطير بـ«النقطة الجافة» / مناقش التسطير» هو الأسلوب السائد المحوطة في جُلّ النماذج المختارة؛ باستثناء مخطوطة واحدة فقط، لحظنا فيها أن التسطير تم بـ«المسطرة».

- الشكل العمودي هو الغالب في «القياسات المطلقة» للمخطوطات، وكذلك في قياسات «المساحات المكتوبة» في مجموع شواهدنا، والتي نذكر مرة أخرى أن محتواها غير ديني.

- تُظهر جميع شواهدنا الرصانة والسهولة الواضحة في النسخ (الكتابة)، وكذلك في نوع التسطير الذي عادة ما يُحَدُّ عند الخططين العموديين الضابطين لإطار النص.

- يغلب السواد (المساحة المكتوبة) على البياض (الهوامش)، مما يعني - بالنسبة لنا - على الأرجح، أنه يتعلق بنسخ تم نسخها في ظروف من القيود الاقتصادية. ويبدو أن أحد شواهدنا فقط شدَّ على هذه القيود، فقد رُسم التسطير فيه بالمسطرة.

إن نص مخطوط رقم (٢١٧ جزائر) متباعد الأسطر، وهو ما يجعلنا نزعَم أن ناسخه لم يخضع للقيود نفسها التي أثرت في النَّسَاح الآخرين.

وبطبيعة الحال فإنَّ استخدام المسطرة في هذا الشاهد الوحيد لم يَغِبْ عنِ اهتمامنا، ونحن نتساءل: كيف صارت هذه الحالة استثناء في عملية التَّسْطِير المعتمد على النقطة الجافة / مناقش التسطير، الملحوظ في جميع النماذج الأخرى. وهذا النموذج المستثنى لا يحمل أية إشارة إلى مكان النَّسخ، وهو ما يدفعنا إلى إثارة التساؤلات الآتية:

- هل نُسخَت في المشرق حيث كان يشيع استخدام المسطرة؟ يبدو أنَّ هذا الاحتمال يثير نوعاً من الشبهة؛ لأن ورق هذا المخطوط ذو نمط مغربي.
- هل تم تنفيذها في الغرب الإسلامي، وجَلَبَ الناسخ أسلوب المسطرة من رحلة إلى الشرق؟

وتدفعنا النتائج المتواضعة التي توصلنا إليها - إلى حدِّ ما - إلى الإحباط، لاسيما عندما يجد المرء أن ج. لوروي (J. Leroy) قام بِجَرْد أكثر من ٧٠٠ مخطط تسطير، استلَّها من ٣٠٠ مخطوطة يونانية، مؤرَّخة قبل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. وهذه الحقيقة تجعلنا نقرُّر أن المجال ما زال بكراً في المخطوطات العربية.

وعلمتنا خبرتنا في منهج العمل الذي اتبعناه أن هذا النمط من الدراسة يستند على الملاحظة والتحليل، اللذين يمكن أن يقودا إلى بعض الذاتية التي تُفرض إجبارياً أو بالضرورة توفر انضباطاً صارماً، وواسع النطاق. ولا تنسينا هذه المتطلبات الافتتان الذي يشعر به المرء عندما يعمل على مادة معقَّدة، يمثلها المخطوط القديم، الذي يُعدُّ «قطعة أثرية» حقيقية.

وأخيراً فإن عدد الدراسات الكوديكولوجية عن المخطوطات العربية القليل^(١)، سيقودنا لمعرفة مستقبل هذا التخصص الجديد، الذي يتجه إلى استعارة مناهج وموضوعات بحثية جديدة، وأكثر تطوراً، من تلك الدراسات التي تمَّ ابتكارها وتطبيقها على المخطوطات اللاتينية واليونانية والعبرية.

وهذا التوجه إلزاميٌّ في هذه المرحلة من تطور هذا التخصص الذي هو الكوديكولوجيا العربية، وهو قمين بأن يثري هذا المجال في المرحلة التالية، وهي الكوديكولوجيا المقارنة، التي تصدَّى لها بعض الكُتَّاب الذين اعتمدنا على دراساتهم في بحثنا هذا.



(١) هذه القلة نسبية، بالنظر إلى التاريخ الذي أنجزت فيه هذه الدراسة، وقد كان سنة ١٩٩٤ - ١٩٩٥. (المترجم).

المصادر والمراجع

- ABOURICHA (N) - «L'Encre au Maghreb» In: Nouvelles des Manuscrits du Moyen-Orient / publ. à l'initiative de l'Ecole Pratique des Hautes Etudes; dir. de la publication François Déroche. - Paris: EPHE· III/1, Juin 1993.
- BEIT-ARTE (M.), - Hebrew manuscripts of East and West: towards a comparative codicology [The Panizzi Lectures, 1992] - Londres: The British Library, 1993.
- DEROCHE (François). - Catalogue des manuscrits arabes. 2ème partie: les manuscrits du Coran. Du Maghreb à l'Insulinde- Paris : B.N., 1985.
- DUKAN (Michèle—) .(La Réglure des manuscrits hébreux au Moyen-Age. - Paris: CNRS, 1988.
- FIMMOD- III/1, JUIN 1993.
- GILISSEN (Léon).- Prolégomènes à la codicologie: recherche sur la construction des cahiers et la mise en page des manuscrits médiévaux -le Gand: Story-Scientia, 1977. - p. 251.
- I.R.H.T. Paris. - Guide pour l'élaboration d'une notice de manuscrit. - Paris: I.R.H.T., 1977.
- KARABACEK (Joseph von). - Arab paper:1887/ trad. de Don Baker et Suzy Dittman.
- LEMAIRE (Jacques). - Introduction à la codicologie. - Louvain-la-Neuve: Institut d'études médiévales, 1989. - p. 265: p1.
- LENGER (M. T.) -Contribution de la codicologie à l'étude des incunables». In: Mélanges Léon Gilissen. Calames et cahiers.— Bruxelles : CEM, 1985.
- LEROY (Julien). - Les Types de réglure des manuscrits grecs. - Paris :I.R.H.T., 1976. (Document multigraphié).
- al-MANOUNI (Mohamed). - Târîh al-wirràqa al-magriibîyya: sinâ'at al mahtut al-magriibi min al- `asr al-wasît ilâ al-fatra al-mu `âsira. - Rabat : Université des Lettres et des Sciences Humaines, 1991. - 351. p.
- MUZERELLE (Denis).- Vocabulaire codicologique: répertoire des termes français relatifs manuscrit. - Paris : C.E.M.I., 1985.

- ORSATTI (Paola). - Le Manuscrit islamique : caractéristiques matérielles et typologie. Tiré à part. In : *Ancient and Medieval Book Materials and Techniques* / ed. par Marilena Maniaci et Paola F. Munafò.— Città del Vaticano, Biblioteca Apostolica Vaticana, 1993 (Studi e testi, 357 - 358), II, p. 269-331.
- SAUVAN (Yvette). - «Un traité à l'usage des scribes à l'époque Nasride. In: *Actes du Colloque d'Istanbul*: Paris: 1989.
- WITKAM (J. J.). - *Catalogue of Arabic manuscripts*. — Fasc. 1. Leiden: E.J. BRILL, 1983.



